الفصل الثاني

البديع

اكتسى الشعر الأندلسي بحلّة البديع على نحو امتاز فيه من نظيره المشرقي . ويراد بالبديع هاهنا الأشكال البديعية التي استقر البلاغيون على حصرها في العلم الذي سموه «علم البديع» تمييزاً لها من فنون علمي البيان ، والمعاني . ولذا فإننا نتعمد إغفال عنصري التشبيه ، والاستعارة اللذين كان يضمهما مفهوم البديع قديماً[1] واللذين بسطنا الحديث عنهما في مبحث الصورة الفنية .

ومن المعلوم أن صيغ البديع وردت في الشعر الجاهلي والإسلامي . فضلاً عن ورودها في القرآن الكريم ، ونصوص الحديث النبوي الشريف ، وكلام الأعراب[2] على نحو عفوي . ولكنها شاعت في العصر العباسي ، وأصبح

---

(١) انظر : ابن المعتز . عبد الله . كتاب البديع . اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس إغناطيوس كراتشقوفسكي . ط ٣ . دار المسيرة ـ بيروت . ١٩٨٢م ، ص٣-٢٤ ، وابن رشيق . العمدة حيث أدخل ابن رشيق الاستعارة في البديع قائلاً : ((الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع)) ٢٦٨/١ ، ثم ألحق التشبيه بأبواب البديع انظر : ٢٨٦/١ . والعسكري . أبو هلال . الصناعتين . ص ٢٦٨-٣٢٠ .

(٢) كتاب البديع ص ٣-١٢ . يقول ابن المعتز : ((قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ماوجدنا في القرآن ، واللغة ، وأحاديث رسول الله ﷺ ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليُعلم أن ==

الشاعر يقصد إليها قصداً لتغدو مدرسة فنية منحت الشعر العربي غنى في المضمون ، فضلاً عن كونها زينة لفظية . وجسّد هذا الاتجاه البديعي أبرز خصائص المذهب المحدث في الشعر ، في مقابل طريقة العرب ، واستتبع جهداً نقديًّا واسعاً يدرس ظواهره ، غير أنه تحول في العصور المتأخرة إلى حذلقة لفظية ، وصناعة متكلفة سقيمة لاترشح بفكر ولا تنمّ على إحساس ، ولا تغني معنًى .

الموقف الأندلسي من البديع :

احتفل الأندلسيون ـ محافظوهم ومحدثوهم ـ بالبديع ، وعدّوه من أبرز سمات الشعر الحسن ، وذلك إذا ماأحسن الشاعر استخدامه ليمنح شعره رونقاً وجمالاً إضافيين ، وليعينه في توسيع جوانب المعنى وتعميقه دون أن يقصر الشاعر غايته على التحسين الشكلي اللفظي ، فيفرط في استخدام أصباغ البديع وزخارفه متجاوزاً الحدود المقبولة منها إلى الشطط والاقتسار الممجوجين .

==بشاراً ، ومسلماً ، وأبا نواس ، ومن تقيّلهم ، وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم ، فعُرف في زمانهم حتى سُمِّي بهذا الاسم ، فأعرب عنه ، ودلّ عليه ، ثم إن حبيب بن أوس الطائي ومن بعدهم شغف به حتى غلب عليه ، وتفرّع فيه ، وأكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك ، وأساء في بعض . وتلك عقبى الإفراط ، وثمرة الإسراف ، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيتَ والبيتين في القصيدة ، وربما قُرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيتٌ بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل)) . البديع : ص ١ . وابن رشيق . العمدة . انظر على سبيل المثال : ١/٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٣٣، ٣/٢، ٤، ٦، ٧، ٨، ١٤، ١٥، ١٦، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٥٠، ٥١، ٥٢ .. حتى ١٠٠ ، وثعلب . قواعد الشعر . شرحه وعلق عليه محمد عبدالمنعم خفاجي . ط ١، ١٩٤٨م، ص ٥٣-٥٨. والعسكري . الصناعتين : ص ٣٠٨-٤٢٨ ، والقاضي الجرجاني . الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٣٣ . وانظر : ما جمعه دكتور رجاء عيد من هذه النماذج الشعرية من كتب النقد العربي القديم في كتابه(المذهب البديعي في الشعر والنقد) . منشأة المعارف بالإسكندرية ص ٥٣-٦٢ .

فهذا ابن بسام الناقد المحافظ ـ في عموم مواقفه ـ يحتفل بالبديع في مقدمة ذخيرته ، ويعدُّه قوام الشعر ، وعماد التقدير . يقول : ((.. لكن ربما ألممتُ ببعض القول بين ذكر أجريه ، ووجه عذر أريه ، لاسيما أنواع البديع ذي المحاسن الذي هو قيّم الأشعار وقوامها ، وبه يُعرف تفاضلها ، وتباينُها ، فلا بد أن نشيرَ إليه ، وننبّه عليه... وعلى ذلك فقد وعدتُ أن ألمَع في هذا المجموع بلُمَع من ذكر البديع ، وأن أمهّد جانباً من أسبابه ، وأشرح جملاً من أسمائه وألقابه . .))[1] وعلى هذا اعتمد ابن بسام فنون البديع مقياساً لتفضيل الشعر . ولا سيما إذا ماجمع الشاعر بين أكثر من باب من أبوابه على النحو الذي قدّم فيه شعر مواطنه ابن برد الأصغر على شعر المشرقي ابن المعتز في سياق انتصاره لأشعار مواطنيه ، وجلاء بديعهم . يقول بعد إيراده قول ابن برد :

ياشـــــاربًا ألـــــثمني شـــــاربا قـــد هـــمَّ فيـــه الآسُ أن ينبُتَـــا

انظـــرْ إلى الـــذاهبِ مـــن ليلِنـــا وامـــزجْ بـــماءِ الـــذهبِ المنبِتَـــا

وقول ابن المعتز :

وشـــــاربٍ قـــــد نَـــــمَّ أو هـــــمَّ عليـــــه الشّـــــعَرْ

ضـــــــعيفةٌ أجفانُـــــــهُ والقلـــــبُ منـــــهُ حجَـــــرْ

((وليست يدُ ابن برد فيه عن مرماه بقاصرة،ولا صفقته حين جاراه بخاسرة، بل ساواه وزاد ، وأجاد ماأراد ، وابن برد جمع في بيته بين بابين من أبواب البديع ، فجانس بين الشارب والشارب ، وأنبأ أن محبوبه في آخر درجة من المرودة ، وأول درجة من اللحية بإشارة عذبة ، وعبارة حلوة رطبة دون تطويل ولا تثقيل))[2].

وأعرب ابن بسام عن إعجابه بنهج القصد في استخدام البديع بحيث لا تودي

---

(١) الذخيرة ١/١ : ١٦-١٨ .

(٢) الذخيرة ١/١ : ٥١٠-٥١١ .

الزينة البديعية برقة الطبع وتدفقه . يقول في شعر أبي الحكم ابن حزم : ((وله شعر مطبوع قلما يغبّه البديع))[1]، ويفاضل بين أنموذجين للتقسيم البديعي لشاعرين أندلسيين مفصحاً أيضاً عن استحسانه الاعتدال في البديع ، والبعد عن الكلفة فيه . يقول بعد إيراد قول أبي العباس أحمد بن قاسم في وصف شعر لابن بسام خاطبه به . ومنه :

وترى البديعَ بهِ بغيرِ تكلُّفٍ ... مابين منفردٍ وبين تؤامِ

متقسّمٌ متقابلٌ متطاردٌ ... متجانسٌ متطابقُ الأقسامِ

إن رُمْتَ تشبيبًا أتيتَ بكلِّ ما ... يجدُ الشجي من لوعةٍ وغرامِ

أو رُمتَ مدحًا لم تكن متطلباً ... ماليس في الممدوح من أحكامِ...

قال ابن بسام : ((وأحسن من هذا التقسيم قول أبي بكر عبادة بن عبد الله ابن عبادة :

يامنيفاً على السماكين سامٍ ... حُزْتَ فضلَ السباقِ عن بَسّام

إن تَحُكْ مدحةً فأنتَ زهيرٌ ... أو نسيباً فعروةُ بنُ حزامِ

أو تباكرْ صيدَ الممها فابنُ حجرٍ ... أو تبكّي الديارَ فابنُ خذامِ

أو تذِمّ الزمانَ وهو حقيقٌ ... فأبو الطيبِ البعيدُ المرامِ))[2]

على أن النزوع الأندلسي كان يجمح أحياناً بابن بسام ، فيفضّل بديع مواطنيه على بديع المشارقة مع اشتراك البديعين في الإغراق والشطط . مما ينفي الموضوعية عن حكمه النقدي هذا . يقول في التقسيم ، أو التشطير الذي يحمله قول ابن زيدون :

يكفيكَ أنك إنْ حمّلتَ قلبيَ ما ... لا تستطيعُ قلوبُ الناسِ يستطعِ

---

(١) الذخيرة ٢/٢ : ٥٨٩ .

(٢) الذخيرة ٢/١ : ٩٠٧، ٩٠٨ .

تِهْ أحتملْ واستطِلْ أصبرْ وعــزَّ أهُــنْ وولِّ أقبلْ وقلْ أَســمعْ ومُرْ أطــع[1]

معلياً إياه على تقسيم لأبي العميثل الأعرابي ، وتقسيم لديك الجن والمتبني في هذا الباب . يقول ابن بسام : ((... وهذا الباب صنعه المولّدون ، وعدّوه تقسيماً وتقطيعاً ، وتبعهم المتنبي فقال :

أقِلْ أَنِلْ أقطعْ احملْ علِّ ســلِّ أعــدْ زدْ هشّ بشّ تفضّل أدن سُــر صِــلِ

ثم زاد أبو الطيب في هذا وتباغض حتى قال :

عِشْ ابــقَ اســمُ سُــدْ قُــدْ جُــدْ مُــــر انـــهَ رفِ اسْــــرِ نِــــلْ

بيته المعروف ، وأحسن لعمري ابن زيدون في هذا التقسيم ، ودفع بالحديث في صدر القديم . ولو قرع سمع أبي منصور بما في تضاعيف هذا التصنيف من الشذور لما كان عنده ابن وشمكير بمذكور ، ولا أغرب بغرائب البديع ، ولا ببديع الصاحب))[2] ومن الجلي أن مذهب ابن زيدون لا يفترق كثيراً عن مذهب المتنبي شططا ، وإن كان اعتمد الطباق في تقسيمه فخلص بيته من الركاكة اللفظية التي مازت بيت المتنبي وملأته سماجة وسخفاً .

ودعا الناقد الأندلسي ابن السراج إلى الاقتصاد في استخدام البديع مقتدياً بأصول طريقة العرب في اعتماد الطبع ، والصنعة السائغة التي يحسن موقعها لقلتها ، وعذوبتها ، والتي تجلّت في الأشعار القديمة . يقول ابن السراج : ((أما المطبوع فهو الأصل الموضوع عليه المدار ، وبه الاقتدار ؛ لأن العرب لم تكن تنظر في بلاغتها على طبعها ، وفصاحتها ، وربما ندر منها المصنوع سليماً من التكلف بريئاً من التعسُّف ، فيحسن في النفوس موقعه ، ويشرف به مكانُه وموضعُه ؛ لأنه يأتي في أضعاف القصائد بمنزلة الفرائد في أثناء القلائد . فأمّا

---

(١) الذخيرة ١/١ : ٣٧٢،٣٧٣ .

(٢) الذخيرة ١/١ : ٣٧٢ . وأبو منصور : هو أبو منصور الثعالبي صاحب اليتيمة . وعارضه ابن بسام بكتابه (الذخيرة) .

أصحاب الصنعة من المحدثين كأبي تمام والبحتري وغيرهما من أعيان المتأخرين فإنهم لمّا آثروا المصنوع جلبوه ، فهرب ، وغالبوه ، فاستصعب ، فأكرهوه حتى ذلّ ، وأكثروا منه فمُلّ . ولو اقتصروا منه على ماسمح به الطبع لعَذُبَ مذاقه وطاب عرفُه ، وحسن إشراقه ، وأعجز وصفه))[1] . ويوضح على نحو أكثر سمات مذهبه المعتدل في الشعر البديعي الذي يلتحم جمال بديعه المعتدل بجزالة المعنى وجلائه ، وابتكاره ، وعذوبة اللفظ . يقول : ((فإذا اتفق تحسين الطبع المعاني ، وتحصين الصنع المباني كان الغايةَ في الكمال ، والنهاية التي عليها الحال)). ((ومن صفات هذا النوع أن تكون ألفاظه عذبةً سهلة ، ومعانيه واقعة جزلة . تدل مباديه على مقاطعه ، وتسبق معانيه إلى فهم سامعه ، وإيجازه مفهم كافٍ وإسهابه مُفحم شافٍ . ألفاظه بالبديع موشية ، ومعانيه مبتكرة مرضيّة))[2] وهو نص ذو دلالة مهمة على ملامح المذهب الشعري الذي آثره عموم الأندلسيين . وهو مذهب يتخيّر من طريقتي العرب والمحدثين ، فيؤلف بين عناصر تصوغ نسيج منهجهم الفني الأثير الذي جمع الابتكار ، والفرادة مع الزينة المقتصدة ، والوضوح ، والقوة .

وكذلك نوّه ابن سعيد بشعر لأندلسي ينحو فيه نحو الصنعة البديعية ، وأورد مثالاً له في ذلك . يقول في أبي عبد الله محمد بن خلصة الأعمى (- ٤٧٠هـ أو قبلها). ((وقد بدرت له أشعار يسير بها إلى البديع ، ويذهب فيها إلى التصنيع ، وكتب عن إقبال الدولة بن مجاهد ملك دانية والجزر . ومن شعره قوله من قصيدة في مدحه :

خدمْتُكُمْ ليكونَ الدهرُ مــنْ خَــدَمي فما أحالَتْــه عــن أحوالِــهِ حِيَلــي

---

(١) جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب . نقلاً عن تاريخ النقد الأدبي في الأندلس دكتور محمد رضوان الداية ص ٤٣٨، ٤٣٩ .

(٢) المصدر السابق ص٣ . نقلاً عن تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ص ٤٣٩ .

إنْ لم تكــنْ بكــمُ حــالي مبدّلــةً فما انتفاعي بعلمِ الحالِ والبــدلِ))[1]

وعلى هذا النحو اعتدّ لسان الدين بن الخطيب بقصيدته التي رفعها إلى الممدوح تيّاهةً بوشي البديع ، وبريقه . يقول :

خُذْها إليــكَ علــى النــوى ســينيّةً تُرضي الطباقَ وتشــكرُ التجنيســا[2]

ويلوح أن تفاقم الجنوح الشعري إلى البديع في العصور الأندلسية المتأخرة أثار حفيظة الناقد الأندلسي الذي نفر من هذا الشطط في الصنعة ، مما يوحي بأن الدعوة إلى القصد في استخدام أصباغ البديع كانت دعوة شبه عامة على امتداد الشعر الأندلسي ، ونقده . فهذا الشاعر ابن حمديس يروي إغراق أحد الشعراء في الجناس مما يوحي باستهجانه هذا المسلك ((فقد حكى صاحب الحديقة أن ابن حمديس أخبره أن عبد الله بن مالك القرطبي عمل قصيدة يقول فيها :

أحييت إذ حيَّيْــت حــاديَ عيسِــهم فكأنّ عيسى مِــنْ حُــداةِ العــيسِ))

فهجاه بعض الشعراء لأنه كره هذا التجنيس[3]. وهذا الشاعر أبو البركات البلّفيقي كان يتمنى لو أنزلت الدولة عقوبة شديدة بكل أديب ينتحل فنون البديع في شعره ونثره ، وأن تعرّضه للإعلان والتشهير[4]. ويقول أبو القاسم

---

(١) ابن سعيد . المغرب ١/٣٩٣، ٣٩٤ .

(٢) ديوانه ٢/٧٢٨ .

(٣) انظر : العباسي . الشيخ عبد الرحيم بن أحمد . معاهد التنصيص على شواهد التلخيص . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ٣/٢٤١ . ووردت فيه لفظة (أحييت) (حيَّيت) . ولعل الأليق بالمعنى ماأثبتناه ، وهو ما أورده الدكتور إحسان عباس في مقدمة ديوان ابن حمديس . واستشف الدكتور عباس من هذه الرواية كراهة ابن حمديس للمغالاة في الجناس . انظر مقدمة ديوان ابن حمديس ص٧ .

(٤) انظر : صلاحية دكتور أحمد . الشعر العربي الأندلسي بين المشرقية والأندلسية . ط ١. شراع للدراسات والنشر والتوزيع ـ دمشق ، ١٩٩٦م ، ص ٢٥٥ . نقلاً عن (أبو الوليد ابن الأحمر) عبد القادر زمامة .

الشريف السبتي (- ٧٦١هـ) في هذا السياق : ((وهذه الفنون البديعية إذا وقعت للشاعر أو الكاتب فيقبح أن يستكثر منها ، لأنها من محسنات الكلام ومزيّناته ، فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها ، ويقبح بتعدادها))[١]. ويلوح أيضاً أن هذه الدعوة وجدت صدّى في الأوساط الشعرية الأندلسية ، فمع الإسراف النسبي في استخدام وجوه البديع ، ومع بعض المحاولات الشعرية اليائسة لتغطية زيف التجربة الشعرية ، وضعف المقدرة الفنية بالبهرجة الشكلية التي تبهر القارئ للحظات . مع كل هذا لم يغرق الشاعر الأندلسي في محيط هذه الزينة البديعية ، ولا أغرق قارئه فيه كما صنع نظيره المشرقي في عصور انحطاطه الفني . ولعلنا في ذلك نخالف المستشرق غرسية غومس حين ذهب إلى أن شعراء الأندلس حاولوا أن يجدّدوا في شعرهم بكساء المعاني كسوة الصنعة البلاغية المسرفة . يقول : ((فحاولوا أن يعطوا هذه المعاني صوراً جديدة عن طريق تقطيرها في أنابيق بلاغية ، وأوغلوا في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية الآربسكية التي تشبه أن تكون قصور حمراء لفظية))[٢] . فهذا الحكم لا يصدق على جمهرة أشعار الأندلسيين التي كانت تنزع دائماً نحو الاعتدال في الزخرفة ، وتؤثر أن توازن بين قوة الشعر وزينته . ولعل مردّ هذا الحرص على القصد في استخدام وجوه البديع تشبث الوجدان الأندلسي برسوم طريقة العرب ، وأسسها في البساطة ، والعفوية ، والبعد عن الكلفة ، فحتى حين كان الأندلسي يبتعد عن طريقة العرب ، وينتهج المذهب المحدث لم يكن يغوص كثيراً في يمّ الحداثة ، ولا ينساق وراء منازعها المتطرفة ، أو أسقامها الفنية التي تفرغ الشعر من روحه ، وتحوّله إلى هياكل لونية ، وأصداء جوفية لا تخدم فكراً ، ولا تجلو شعوراً . ولعلنا شهدنا هذا الاعتصام الأندلسي العام بروح المذهب المحافظ في

---

(١) الشعر العربي الأندلسي بين المشرقية والأندلسية ٢٥٥، ٢٥٦ . نقلاً عن (أبو الوليد ابن الأحمر) عبد القادر زمامة .

(٢) الشعر الأندلسي ص ٢٥ .

نفور الأندلسي من الإغراق في المعاني الفلسفية التي تجانب الاعتدال ، وتعبث بأصول العقيدة .

البديع في عفويته واعتداله :

بدا البديع في كثير من أشعار الأندلسيين متسماً بالعفوية ، ولا سيما في الشعر الأندلسي المبكر ، ولدى شعراء المذهب القديم . واستخدمه هؤلاء عن قصد في أحيان كثيرة أخرى . لكنهم لم يخرجوا فيه عن حد الاعتدال ، ولم يسرفوا فيه إسرافاً يطمس المعنى ، أو يشوّه الصورة . وقد منح هذا الضرب من البديع الشعر الزينة المنشودة ، ولوّنه بألوان زاهية . ولكنه لم يقتصر على التحسين الشكلي ، بل إنه أسهم في شطر مهم منه في إغناء المعنى ، وجلاء الفكرة ، وتعميق الشعور . ففي أبيات حمدة بنت زياد المؤدب تطغى وقدات العاطفة على الزخرف البديعي ، بل يأتي البديع خادماً لها ، مكملاً لمعناها . تقول فيما أسماه البلاغيون ((ردّ العجز على الصدر)) :

ولـــمّا أبى الواشـــون إلا فراقَنَـــا ومالهمُ عنـــدي وعنـــدَك مـــن ثـــارِ
وشنُّوا علـــى أسماعِنـــا كـــلّ غـــارةٍ وقلّ حُمـــاتي عنـــدَ ذاك وأنصـــاري
غـــزوتُهُم مـــن مقلتيـــكَ وأدمعـــي ومن نفَسي بالسيفِ والسيلِ والنارِ[1]

ومن هذا القبيل قول الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط يستخدم الجناس والطباق استخداماً عفويًّا يقتضيه المعنى بعيداً عن الكلفة :

ذكـــرَ الصّـــبوحَ فظـــلّ مصـــطبحا يســـــتعملُ الإبريـــــقَ والقـــــدحَا
مـــازال حيّـــاً وهـــو يشـــربُها حـــتى أماتَتْـــه الكـــؤوسُ ضـــحى[2]

وبرز البديع المعتدل في أشعار العصور الأندلسية جميعها ، ولا سيما لدى شعراء المذهب المحافظ . فقد وُفّق ابن عبد ربه في استخدام التضمين البديعي ،

---

(١) نفح الطيب ٤/٢٨٧ .
(٢) الحلة السيراء ١/١٢٠ .

ولا سيما تضمين أبيات الشعر القديم التي أولع بها ، استخداماً ينفي عنه سمة التكلف أو الاقتسار ، فكان يضعها في مكانها اللائق بها بين أبياته فتبدو بعضاً منها دون نبوّ أو تعسّف . انظر إليه يضمّن أحد أبيات الشعر القديم ، إذ يأتي بأبيات الغزل التي تمهّد له فيقول :

أنتِ دائي وفي يديك شفائي ... ياشفائي من الجوى وبلائي
إنَّ قلبي بِحُبِّ مَنْ لا أسمِّي ... في عناءٍ أعظِمْ به من عناءِ
أيها اللائمون ماذا عليكم ... أنْ تعيشوا وأنْ أموتَ بِدائي (١)

ثم يورد البيت الذي يروم تضمينه . وهو :

((**ليسَ مَنْ ماتَ فاستراحَ بميْتٍ ... إنما الميتُ ميِّتُ الأحياءِ**))(٢)

ويتبدى الاعتدال في هذا النموذج للتقسيم البديعي (أو التشطير) لدى ابن هانئ ذي الاتجاه المحافظ أيضاً في قوله مادحاً :

أعزَزْتَ دينَ اللهِ يا ابن نبيِّه ... فاليومَ فيه تخمُّطٌ وإباءُ
فأقلُّ حظِّ العُرْبِ منكَ سعادةٌ ... وأقلُّ حظِّ الرومِ منك شقاءُ
فإذا بعثتَ الجيشَ فهو منيّةٌ ... وإذا رأيتَ الرأيَ فهو قضاءُ (٣)

ولا تحجب الصنعة البديعية المعتدلة رونقَ الشعر ، بل تزيده تدفقاً موسيقيًّا ، وإيقاعاً رشيقاً . انظر قول هذا الشاعر في الربيع الذي وصفه أبو الوليد الحميري بـ «المصنوع المطبوع»(٤) . يقول أبو القاسم البلمي :

---

(١) ديوانه ص ٢٢ .

(٢) ديوانه ص ٢٢ . والبيت المضمّن لعدي بن الرعلاء الغساني . انظر : الجاحظ . كتاب الحيوان . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . ط ٣ . دار إحياء التراث العربي . بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٩م ، ٥٠٧/٦ وانظر : نماذج أخرى كثيرة لتضمينه أبيات الشعر القديم في قصائده : ديوانه ص٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ١٠٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) ديوانه ص ٣٠، ٣١ . والتخمُّط هو التكبُّر .

(٤) البديع ص ٣٣ .

انظـــرْ ونـــزّهْ ناظريْـــكَ بروضـــةٍ غنّـــاءَ مازالـــتْ تـــراحُ وتُمطـــرُ
لتريكَ من صـــنعاءَ صـــنعةَ وشْـــيِها بمطـــارفٍ مـــن تُسْـــتر لا تُسْـــتَرُ
ألوانُهـــا شـــتى وطيـــبُ نســـيمِها يُقضى العبيرُ بـــه ويُنســـى العنـــبرُ[1]

ويتسم الجناس بالرشاقة في قول الشاعر :

الحاجب المحجـــوب طـــاهرُ عرضِـــه بنـــدى جـــوادٍ في الرهـــانِ جـــواد
صـــلتان مازالَـــتْ حـــدادُ ســـيوفِه وقناهُ تكسو الشركَ ثوبَ حِـــدادِ[2]

ومن قبيل الاعتدال في البديع قول ابن الحداد :

سَلِ البانةَ الغيناءَ عن ملعـــبِ الجُـــرْدِ وروضتَها الغنّاءَ عنْ رشَـــأ الأسْـــدِ[3]
وسَجْسَجَ ذاكَ الظلِّ عن مُلهبِ الحَشَا وسلْسَلَ ذاك الماءِ عن مُضرمِ الوجْدِ[4]

ويستعين المعتمد ـ في سياق اعتذاره لأبيه المعتضد عن تهاونه في إحدى الوقائع الحربية ـ بالمقابلة والتقسيم بغية تجسيد المفارقات التي تجلوها أفعال خصومه وهو بديع لايخرج عن القصد والتعمد . ولا يتسم بالتصنع الممقوت :

ماالذنبُ إلا على قـــومٍ ذوي دَغَـــلٍ وَفَى لهُمْ عهدُكَ المعهـــودُ إذْ غـــدرُوا
قـــومٌ نصـــيحتُهم غـــشٌّ وحـــبُّهُمُ بغضٌ ونفعُهُـــمُ إنْ صـــرّفوا ضَـــررُ
يـــميّـــز البغضُ في الألفاظِ إنْ نَطَقُوا ويُعرفُ الحقدُ في الألحـــاظِ إنْ نظـــرُوا[5]

---

(١) البديع ص ٣٣، ٣٤ .
(٢) البديع ص ١١١ .
(٣) الجرد : الفتيات الرقيقات البشرة . الأسد : أصلها الأسد بفتح السين . وسكنها لضرورة الشعر .
(٤) السجسج : الهواء المعتدل الرطب بين الحر والبرد . ديوانه ص ١٩٦ .
(٥) ديوانه . جمعه وحققه أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥١م ص ٣٨ .

ويستخدم ابن اللبانة البديع استخداماً يمسُّ جوهر أبياته الملتهبة بأتّون العاطفة الحزينة . فعلى الرغم من وجود ألوان البديع في كل بيت من أبياتها فهي لاتشي بشيء من الافتعال الممقوت . بل على النقيض من ذلك أسهمت ألوان البديع هذه في توسيع رقعة الفاجعة ، وتعميق أبعاد المصاب ، ومنحت الأسلوب طاقات تعبيرية بالغة . يقول في مأساة المعتمد ، ونهايته الفاجعة :

فانفضْ يديك من الـدنيا وسـاكنِها فالأرضُ قد أقفرَتْ والناسُ قدْ مـاتُوا
وقلْ لعالِمِها الأرضـيِّ قـدْ كتمـتْ سـريرةَ العـالِمِ العُلـويِّ أغمـاتُ
طَـوَت مظلّتُهـا لا بـل مـذلّتُها من لم تزلْ فوقَـهُ للعـزّ رايـاتُ (١)

ومن نماذج الاعتدال في حسن التعليل قول مرج الكحل الأندلسي في مشهد الطبيعة الفاتن :

نـهرٌ يهـيمُ بحسـنِهِ مَـنْ لمْ يَهِـمْ ويجيدُ فيـه الشـعرَ مَـنْ لم يشـعُر
ماأصفرَّ وجهُ الشمسِ عنـدَ غروبِهـا إلاّ لفرقـةِ حُسْـنِ ذاكَ المنظـرِ (٢)

ومن رائق البديع قول أبي جعفر أحمد بن يحيى الحميري الوزغي في التورية ، وحسن التعليل و ((كان يعشق غلاماً اسمه عيسى ، فقرأ عليه غلام اسمه محمد ، فمال إليه ، وقال :

تبدّلتُ مـنْ عيسـى بحـبِّ محمـدٍ هديتُ ولـولا اللهُ ماكنـتُ أهتـدي
وما عـنْ مـلالٍ كـانَ ذاكَ وإنّمـا شريعةُ عيسى عُطّلَتْ بـمحمـدِ)) (٣)

ويمنح هذا اللون البديعي المسمى بـ «اللف والنشر» قول ابن خفاجة دفقات موسيقية راقصة أكسبته رونقاً ، ورشاقة تروق السمع ، وتغني المعنى ، وتوسع أطنابه دونما إغماض أو تعقيد . يقول ابن خفاجة :

---

(١) المراكشي . عبد الواحد . المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق : محمد سعيد العريان . القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص٢٠٩ .
(٢) جرار . دكتور صلاح . مرج الكحل الأندلسي ص ١٢٠ .
(٣) المغرب ١/٢٢٠ .

فـــــإذا رَنَـــــا وإذا شَـــــدَا وإذا سَـــــعَى وإذا سَـــــفَرْ

فضـــــحَ المدامـــــةَ والحمـــــا مَـــــةَ والغمامـــــةَ والقمَـــــرْ [1]

ويلون ابن الزقاق ذو الاتجاه المحافظ أبياته الشعرية بألوان البديع تلويناً سائغاً أثرى المعنى ، وأغنى الجانب الموسيقي فيه . وهي ، وإن كان القصدُ إليها واضحاً ، لم تخرج إلى الإغراق النابي . يقول في الرثاء :

أردى شـــبيبتَه الـــردى ومـــن المـــنى لو يفتـــديها شـــرخُ كـــلِّ شـــبابِ

ســـلبَتْه دنيـــاه ثيـــابَ حياتـــه فلتعصـــبنّ عليـــه ثـــوبَ ســـلابِ

أمســـت كنانـــةُ بعـــدَهنّ كنانـــةً مهجورةً صـــفِرَت مـــنَ النشّـــابِ [2]

وأفصح الشاعر الأندلسي من خلال أصباغ البديع المقتصد عن بعض خصائص الحياة الأندلسية . نحو هذه الحيلة الذكية التي جسّدها حسن التعليل الذي يستوحي عادة اللثام في عهد المرابطين . يقول حبلاص الشاعر الرندي يستميح نوال ممدوحه :

ولو لَمْ تكنْ كالبـــدرِ نـــورًا ورفعـــةً لَمَا كُنْتَ عـــزًّا بالســـحابِ ملثّمـــا

ومـــا ذاكَ إلا للنـــوالِ علامـــةٌ كذا القطرُ مهما لثم الأفقَ أتْهَمـــا [3]

وعلى هذا النحو تمنح هذه المقابلة الرشيقة الشعر تدفقاً . يقول لسان الدين ابن الخطيب :

طلـــقُ المحيّـــا والخطـــوبُ عـــوابسٌ هامي الأنامـــلِ والغمـــامُ بخيـــلُ [4]

الإغراق في البديع :

وحين اشتد الكلف بالبديع لدى الشاعر الأندلسي المحدث أغرق فيه إغراقاً وسمه بالتكلف ، فغدا هذا الشاعر يوجّه عنايته إلى الجانب الشكلي من الشعر ، وكأنه يعبر بذلك عن ولوعه بمظاهر الزينة وبريقها في مظاهر الحياة المختلفة ،

---

(١) ديوانه ص ١٤١ و ٣٥٩ .
(٢) ديوانه ص ١٠٣، ١٠٤ .
(٣) المغرب ٣٣٧/١ .
(٤) ديوانه ٤٨٨/٢ .

في المباني ، والقصور ، والمنى ، ومجالس الشراب والأنس ، وفي ترف اللباس وأناقة المظهر التي عرف بها الأندلسي . كل هذه المجالي كان لا بدّ من أن تتبدّى في الشعر الأندلسي على نحو ما ، وأن تؤثر في أسلوب الشاعر المحدث الذي كان محاطاً بمظاهر التأنق ، فغدا يحاكيها في شعره هذا فضلاً عن تلقّيه الدائم لنماذج الزخرفة في الشعر المشرقي المحدث ، وإعجابه بها ، وجنوحه إلى محاكاتها . وقد رأينا احتفال الأندلسيين بشعر أعلام المحدثين المشارقة الذي ينطوي على زخارف البديع كشعر مسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، والمعري الذي استقطب عنايتهم ودراستهم ومعارضاتهم أيضاً ، فاستلهموا من هؤلاء العديد من منازع الحداثة ، ومضوا في طريق الزخرفة هذه ليصلوا بها في العصور الأندلسية المتأخرة إلى ألاعيب ذهنية تفتقد في كثير من الأحيان أصالة التجربة ، وعمق الفكرة ، وحرارة المعاناة . وإن كانوا لم يبلغوا مبلغ نظرائهم في المشرق الذين غدا شعرهم حيلاً لفظية ، وقوالب شكلية ، إذ ظل الشعر الأندلسي لدى العديد من شعرائه المتأخرين محتفظاً بقدر من رونقه ، ونابضاً ببعض العافية والقوة .

امتاز كثير من الشعراء بالإفراط في البديع ، والاحتيال في تصيد ألوانه ، وحشدها سعياً إلى الإغراب ، وإبرازاً للمقدرة الفنية في مسلك التمحل الذهني الذي يذهب بأصالة التجربة ، ويودي بعمق المضمون . وكان ابن دراج من أبرز هؤلاء الشعراء ، إذ شغف بالبديع شغفاً فاقَ فيه من تقدّمه ، وامتاز فيه على من تأخر عليه . ولكنه سلك في هذا البديع مسالك شتى ، فاستخدمه في بعض الأحيان استخدام الزينة الفنية ، والزخرف الشكلي ، فكان يجهد في نحت جزئياته ، وصبغه بألوانه البراقة نحو هذا التكلف الباهت للجناس ، والافتنان في تصيُّده ، وحشده حشداً ينهزم أمامه صدق الشعور ، وعمق المعنى ، فتضيع الفكرة ، ويحول اللون . يقول مشتقًّا من أسماء القبائل اليمنية ألواناً من الجناس :

فأعرَبَ عنْ إقدامِ يعربَ واحتبى فلمْ ينسَ منْ هودٍ سناءً ولا هَدْيَا

ومِنْ حميرٍ ردّ القنا أحمرَ الذُّرى ومن سبأٍ قادَتْ كتائبُه السّبْيَا
وما نام عنه عرقُ قحطانَ إذ فدى عروقَ الثرى من غُلّة القحطِ بالسُّقْيا
ولا أسْكَنتْ عنه السكونُ سيادةً ولا رضيت طيٌّ لراحته طَيّا
ولا كندتْ أسيافه ملك كندةٍ فيترك في أركانِ عزّتها وهْيَا
ولا أقعَدْته عن إجابةِ صارخٍ «تجيبُ» ولو حبَواْ إلى الطعنِ أو مَشْيَا[1]

وعلى هذا النحو يدفع الشغف بالجناس ابن دراج إلى مثل قوله :

ونَكِرْتُ من جورِ الحوادثِ أنّني ظامٍ وبحرُ الجودِ فوقي طامِ
وبَصُرْتُ من خللِ التجمُّلِ خُلَّتي وفهمْتُ منْ صمتِ الحياءِ كلامي[2]

وقوله :

سرٌّ سَرَى لجوانحي فسَرَى بها وهوًى هويْتُ لطوعِه فهوى بي[3]

ويصل الشغف بالبديع لدى الشاعر إلى حدود الإلغاز ، والتلاعب اللفظي . فهذا ابن شخيص يتعمل الطباق الذي تزدحم فيه الألفاظ المتضادة تزاحماً لا طائل وراءه . يقول :

وما يضعُ الإدبارُ مَنْ أنتَ رافعُ ولا يرفعُ الإقبالُ مَنْ أنتَ واضعُ
جمعتَ بما فرّقْتَ شملَ جميعنا فأنتَ بتفريقِ الذخائرِ جامعُ[4]

وعلى هذا النحو من اقتناص البديع الساذج قول السميسر في رثاء بني عامر:

أصاب الزمانُ بني عامرٍ وكان الزمانُ بهمْ يفخرُ
فعادَ نهارُهم مظلما وليلهم بعدُ لا يُقمِرُ
وأيامُهُم بعدُ لاتزدهي وصبحُهُم ظلّ لا يُسفرُ

---

(١) ديوانه ص ١٧٤ . (٢) ديوانه ص ٤٩٢ .
(٣) ديوانه ص ١٨٢ .
(٤) شعر ابن شخيص الأندلسي . حققه وقدم له دكتور أحمد صلاحية ص ٥٧ .

أمـــاتَهُمُ الـــدهرُ قبـــلَ المنـــونِ فهـــم ميّتـــون ولم يُقـــبروا
فـــأينَ الســـريرُ وأيـــن الســـرورُ وأيـــنَ القصـــورُ الـــتي عمّـــرُوا [1]

وحين تفاقم الشغف بالبديع لدى الشاعر المحدث حوّل الشعر إلى مجرد قوالب لفظية جامدة تفتقد حتى براعة الصياغة ، وتقتصر على تصيد ألوان البديع ، وعرضها عرضاً مفتعلاً يقود إلى النشرية والسطحية ، مثل هذه المطابقات التي تقوم على إثارة التداعيات اللفظية بين اللفظ وضدّه إثارة متكلفة . ولنا أن نتساءل إزاء هذه الأبيات ماقيمة التجربة التي يعرضها الشاعر من خلال رصف هذه الأضداد اللفظية رصفاً أجوف؟ يقول ابن حريق البلنسي في المديح :

وخُذُوا مـــنْ تحـــتِ نعليْـــهِ الثـــرَى فـــاذخروا علـــقَ الشـــفاءِ المنفسَـــا
تكحـــل العـــينُ بـــه إنْ رمـــدَتْ ينطـــق الطفـــلُ بـــهِ إنْ خرسَـــا
تصـــلحُ الحـــالُ بـــهِ إنْ فســـدَتْ يـــنعشُ الجـــدُّ بـــه إنْ تَعِسَـــا
تنشـــطُ الـــنفسُ بِـــهِ إنْ ســـئمَتْ يرطـــبُ العـــيشُ بِـــهِ إنْ يَبِسَـــا [2]

ومن هذا القبيل في تصيد البديع الضحل قول لسان الدين بن الخطيب متمحلاً الجناس :

كم فضةٍ فُضّتْ وكـــم مـــنْ ضـــيعةٍ ضاعَتْ وكم ذهبٍ رأينا يـــذهبُ [3]

وكذلك قوله يتعقب الجناس تعقباً يقود به إلى ضرب من المماحكات اللفظية السقيمة :

يروم بسَكْبِ الجودِ كسْـــبَ ثنـــائِهِمْ فللّهِ منْ سكْبٍ كريمٍ ومنْ كَسْـــبِ[4]

---

(١) السميسر حياته وشعره،دكتور حلمي الكيلاني ص١٣٨.مؤتة للبحوث والدراسات.
(٢) ابن حريق البلنسي . محمد بن شريفة ص ١٢٨ .
(٣) ديوانه ١١١/١ . (٤) ديوانه ١١٧/١ .

ويلتاح التكالب على البديع إزاء فاجعة الموت ضرباً من السخف الفني يُفرغ الشعر من وقدة الانفعال المتوقع في هذه المناسبة الحزينة . . نحو افتعال البديع في قول أبي النعيم رضوان بن خالد المالقي (- ٦٣٥هـ) في رثاء أبي عامر بن حسون صاحب مالقة :

سكنْتَ فحرّكْتَ الأسى والتفجُّعَا ونمْتَ فأيقَظْتَ البُكَا والتوجُّعا

ومِتَّ فأحيَيْتَ المتاعبَ كلَّها وغبْتَ فأحضَرْتَ المصائبَ أجمعا[1]

وهذا يبيح لنا أن نتساءل ماجدوى هذه الحذلقات اللفظية والألغاز في فاجعة زوج بأم ولده في متاهات الغربة ، وصقيع الوحشة . يقول لسان الدين ابن الخطيب مقدّماً لأبيات له في رثاء زوجه : ((من وفاة أم الولد عن أصاغر زغب الحواصل بين ذكران وإناث في بلد الغربة وتحت سرادق الوحشة ... :

روّعَ بالي وهاجَ بلبالي وسامَني الثُّكْلَ بعدَ إقبالِ

ذخيرتي حين خانَني زمني وعُدّتي في اشتدادِ أهوالِ

حفرْتُ في داريَ الضريحَ لها تعلُّلاً بالمُحالِ في الحالِ

قد كنتِ مَاليَ لمّا اقتضى زمني ذهابَ مالي وكنتِ آمالي

أما وقد غاب في تراب «سلا» وجهُكِ عنّي فلستُ بالسالي

واسمُكِ مقلوبه يبيّن لي مآلَ أمري في معرض الفالِ))[2]

بل إنه ليبدو الحرص على الصنعة البديعية عجيباً إزاء تصدع الكيان الأندلسي ، وسقوط حواضره الواحدة تلو الأخرى ؛ إذ تطيح هذه الصنعة

---

(١) ابن سعيد . أبو الحسن ، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى . اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل . تحقيق إبراهيم الأبياري . القاهرة ـ الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية . ١٩٥٩م ، ص ١٨٥ . ولعل الأفضل في البيت الأول (فأيقظت) عوضاً من (وأيقظت) .

(٢) ديوانه ٥٠٥/٢، ٥٠٦ . وذكر محقق ديوانه أنه لم يعرف اسم امرأة ابن الخطيب هذه ولعلها «رحمة» . انظر : هامش رقم (١٦٥) ص ٥٠٦ .

المفتعلة بمرارة الفاجعة ، وتكفكف من حدّة المشاعر المتوهجة . نحو قول هذا الشاعر المجهول في رثاء طليطلة :

لثُكْلِكِ كيفَ تبتسمُ الثغورُ ... سروراً بعدما سُبِيَتْ ثغورُ
أمَا وأبي مصابٌ هُدَّ منْهُ ... ثبيرُ الدينِ فاتّصلَ الثبورُ
لقد قُصمَتْ ظهورٌ حين قالُوا ... أميرُ الكافرينَ لهُ ظهورُ
لقدْ خضعَتْ رقابٌ كُنّ غلْبَاً ... وزال عتوُّها ومضى النفورُ
وهانَ على عزيزِ القومِ ذُلٌّ ... وسامحَ في الحريمِ فتًى غيورُ[1]

وعلى هذا النحو يتصيد ابن الأبار البديع في رثائه مدن الأندلس :

وفي بلنسيةٍ منها وقرطبةٍ ... ماينسفُ النّفْسَ أو مايترفُ النَّفَسا
ياللمساجدِ عادَتْ للعِدَى بِيَعا ... وللنداءِ غَدَا أثناءَها جرسَا
لهفي عليها إلى استرجاعِ فائتِها ... مداراً للمثاني أصبحَتْ دُرُسَا[2]

وأنتج التهالك على الزخرف البديعي أمثال هذه المحاولات الشعرية اليائسة للإغراب ، وإثبات البراعة الجوفاء . فهذا أمية بن أبي الصلت الأندلسي يفوق أقرانه من الأندلسيين والمشارقة في الاستزادة من التقسيمات ، وحشدها في بيت واحد ، فينتهي إلى هذه النثرية الضحلة التي تشبه أي شيء ماخلا الشعر . يقول :

فدُمْ وابقَ واسلَمْ واستصل عزة وصِلْ ... وسدُ وارقَ واغنَمْ واستزدْ رفعةً وانمُ[3]

ويجري ابن حمديس في هذا المضمار فيقول :

فانصُرْ وافخَرْ وأدِرْ وأشِرْ ... وأبر وأجِر وأعز وسُد[4]

---

(١) نفح الطيب ٤/٤٨٣ . (٢) ديوانه ص ٣٩٦ ، ونفح الطيب ٤/٤٥٧ .
(٣) ديوانه ص ٧٥ . (٤) ديوانه ص ١٦٢ .

الكلف بتجنيس القوافي :

افتن الشاعر الأندلسي المتأخر ببعض ألوان البديع ، فعني بتجنيس القوافي مجارياً في ذلك الشاعر المشرقي المحدث ، فأولع بعض الشعراء بهذا المسلك الفني في العصور الأندلسية المتأخرة[1] . بل تحول هذا المذهب لديهم إلى غرض شعري مألوف حظي بإقبال الشعراء ، واستحسان النقاد . يقول ابن بسام في ترجمة الأديب أبي الحسن الحصري الكفيف : ((وقال مما ذهب مذهبَ أبي الفتح البستي صاحب الطريقة الأنيقة في تجنيس القوافي : ...

ربّ ظبيٍ هويتُهُ ... ينتمي للهوازنَهْ

قلتُ ماأثقلَ الهوى ... قالَ مالهوى زِنَهْ))[2]

وهذا عبد الكريم القيسي يقرر تحول هذا المذهب إلى غرض شعري شائع . يقول : ((وقلتُ في غرض التجنيس :

إذا ماقضيبُ البانِ مالَتْ بهِ الصَّبَا ... وأفصحَ طيرُ الأنسِ في غُصُنِ الرّنْدِ

يهيّجُني شوقي ويجذبني الهوى ... إلى الطالبِ الأزكى أبي الحسنِ الرندي[3]

ومن العجيب أن يدخل هذا اللعب البديعي في خصوصية التجربة الصوفية وعمقها . يقول لسان الدين بن الخطيب ضاجًّا من إخفاقه في تهذيب نفسه بسبب انغماسها في مطامع الدنيا وشهواتها . يقول :

مالي أهذّبُ نفسي في مطامعها ... والنفسُ تُزْري بتهذيبي وتَهْذي بي

---

(١) انظر : مقطوعات ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي في تجنيس التصريع ، وأخرى في تجنيس القوافي . ديوانه ص١٠٥-١٠٧. وانظر : معارضة أبي بكر بن القوطية لطريقة أبي الفتح البستي في التجنيس . شعر أبي بكر بن القوطية . بهنام دكتورة هدى شوكة ص ١١٢ .

(٢) الذخيرة ١/٤ : ٢٥٧، ٢٥٨ . والبستي هو علي بن الحسين بن عبد العزيز ولد في (بست) قرب سجستان وهو من شعراء اليتيمة ، توفي سنة (٤٠٠هـ) .

(٣) ديوانه ص ٢٣٣ . وكلمة الطالب في استعمال الأندلسيين المتأخرين والمغاربة . مرادفة لكلمة فقيه . هامش رقم (٢) .

وإذا استعَنْتُ على دهرٍ بتجربةٍ تأبى المقاديرُ تجريبي وتجري بي[1]

ويلوح أن الشغف بهذا المذهب تحول إلى ضرب من الحيل والألاعيب اللفظية ، بل غدا ميداناً للتباري الضحل بين الشعراء ، ومادةً للعبث اللفظي الذي يبرز في عصور الضعف الشعري ، والتقهقر الفني . يروى عن الشاعر الجزار السرقسطي أنه ((كان مولعاً بالتجنيس ، فوقف على حانوته بعض الطلبة ، وهو يبيع لحم ضائنة فقال له :

لحمُ إناثِ الأكباشِ مهزولُ

وقال الجزار :

يقول للمشترين : مَهْ زولوا))[2].

وغالى بعض الشعراء ، فتشبث بهذا المذهب الشعري إفصاحاً عن الخواء الفكري الذي ابتلي به الشعر الأندلسي في عصوره الأخيرة . فهذا ابن خاتمة يحشد هذه التجنيسات في أبياته هذه ، ولا سيما في قوافيه ، حشداً سقيماً سعياً إلى إثبات المهارة الجوفاء ، واللعب السمج . ((وقال والتزم في قوافيه نوعاً من التجنيس :

بحقّ فضلِ الرسولِ سُولي بِرِدْ بروحِ الوصالِ صَالي
سبى سنا حسنِكم فؤادي مالي وللجمالِ مالي
ياظبيُ هَبْ لي رضاكَ علّي أبْرا بهِ مِنْ خبالِ بالي
أيأستُ فيكَ العذولَ منّي ترفُّعاً عن مقالِ قالي

---

(١) ديوانه ١٤٧/١ ووردت لفظة (أعذب) فيه عوضاً من أهذب التي وردت في النفح ٤٨٨/٦ . وفيه (تأنف) عوضاً من (تزري) و (أهلي) عوضاً من (دهر).

(٢) روضة المحاسن . ديوان الجزار السرقسطي ص ١٩٨ وفيه أنّ هذه الرواية وردت على نحو آخر في بعض المصادر وفيها أن ابن عمار الشاعر هو الذي كان شريك الشاعر الجزار السرقسطي في هذه المباراة الشعرية . مع تغيير يسير في بعض ألفاظها .

هـــل أقتفـــي في المـــلاحِ لاحِ وأهيفـــي في العـــوالِ والي [1]

وبرز هذا المنحى في تجنيس القوافي في الموشح الذي ضرب بسهم في الصنعة البديعية ، وكان الجناس أبرز الألوان البديعية دوراناً فيه ، ولا سيما في قوافي الأدوار والأفعال . يقول ابن زهر :

قلـبي مـن الحـبِّ غـيرُ صـاحِ صـاحِ
وإنْ لحـاني علـى المـلاحِ لاحِ
وإنـما بغيـةُ اقتراحـي راحـي
وإن درى قصـتي وشَـاني شاني [2]

لزوم مالا يلزم :

وشغف بعض الشعراء المحدثين بمحاكاة بعض شعراء المشرق ـ ولا سيما أبو العلاء المعري ـ في مذهبه في لزوم مالا يلزم ، فبنوا قوافيهم على أحرف معينة تتكرر في الأبيات جميعها ، واجتهدوا في إبراز المهارة في اصطياد هذه اللزوميات رامين إلى الاستطراف في هذه المماحكات ، والقعقعة الجوفاء . يقول ابن خفاجة الذي أولع بهذا المذهب الذي يتكرر في ديوانه كثيراً [3] : ((وقال في لزوم مالا يلزم :

أيُّ زمـانٍ جـادَ إلا نـهبْ أم أيُّ خطـبٍ جـاء إلا ذهـب
كُلاًّ طـوى الـدهرُ فـلا مـاوهى بجانـب دامَ ولا ماوهَـب
فمـا لعقـلٍ وافِـرٍ والمـنى ومـا لـنفسٍ حُـرَّةٍ والـذّهَبْ

---

(١) ديوانه . تحقيق : دكتور محمد رضوان الداية ص ١٠٧ .

(٢) ديوان الموشحات الأندلسية ١١٤/٢ . وانظر : الصفدي ـ توشيع التوشيح . تحقيق مطلق . ألبير حبيب . ط ١ ، دار الثقافة ١٩٦٦م ، ص ٩٦ .

(٣) انظر : ديوانه ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ١٠١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٦ ، ٢٤٩ .

فصُــل إذا قارعْــتَ قرنــاً وصــل خدناً ولا تــهلعْ إذا الســيفُ هــبّ
وابتــع بكــيسٍ كــأسَ مشــمولةٍ واسحبْ ذيولَ اللهوِ واخلعْ وهَــبْ))[1]

ومن ذلك قول أبي الربيع الكلاعي سليمان بن موسى بن سالم (-٦٣٤هـ) في الشيب :

أنفقْتَ عمــرَكَ في غــيٍّ تُسَــرُّ بــه مجمِّعاً مــن قبــيحِ الفعــلِ أو شــابا
وللفتى في الشــبابِ النَّضــرِ محتمــلٌ إنْ داخلَ المرءَ في الأعمــالِ أو شــابا
فهــل وراءَ مشــيبٍ حَــلَّ معــذرةٌ سيانِ ماتَ لدى التحقيق أوشــابا[2]

الكلف بالتورية :

كانت التورية من الفنون البديعية التي كلف بها شعراء الأندلس المتأخرون ، فافتنُّوا في التورية بأسماء الكتب ، والعلماء والمواضع . ولكن الجمهرة العظمى من هذه التوريات لم تأت عفوية ، وإنما جاءت متكلفة لايبغي صاحبها من ورائها سوى إبراز سعة الثقافة وتنوعها ((وقد كانت التورية فنًّا شائعًا في غرناطة في ذلك الوقت يتخذه الأدباء والمتأدبون تسلية ، ورياضة ذهن ، ويمتطيه الذين يقرزمون وينظمون للمشاركة))[3]. ومن الطريف أن يغدو هذا اللون البديعي ميداناً للمعارضات الشعرية التي يتبارى أصحابها في حشد عناصر الثقافة والعلوم فيها . كل في ميدانه . فهذا شاعر يقف على قطعة لأندلسي آخر في التورية بأسماء كتب الفقه ، فيجهد في أن يسبقه مستكثراً من أسماء كتب أخرى تفصح جميعها عن غلبة المذهب المالكي في الأندلس . يروي المقري أن أبا علي حسين بن صالح بن أبي دلامة ((لمّا وقف على قطعة للرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي وهي قوله :

---

(١) ديوانه ص ٢٤٩ .

(٢) الأوسي المراكشي . بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة . تحقيق : دكتور إحسان عباس . دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ص ٨٧ .

(٣) الداية . دكتور محمد رضوان . ديوان ابن خاتمة ٢٤ .

مَـــنِ اغتـــدَى موطَّـــأ أكنافِـــهِ صـــحّ لـــه التمهيـــدُ في أحوالِـــهِ
وقابَـــلَ اســـتذكارَهُ بـــالمنتقى مـــنْ رأيِـــهِ المختـــار مـــن أعمالِـــهِ
وأضـــحَتِ المســـالكُ الحســـنى لـــه تـــدني تقَصِّـــيًا قُصـــى آمالِـــهِ
وســـارَ في مشـــارقِ الأنـــوارِ في أدنى الـــمـــــدارك إلى إكمالِـــهِ

عارضها وزاد ذكر القبس والمعلم :

قـــلْ للموطـــأِ للـــورى أكنافُـــه بشـــراه بالتمهيـــدِ في الأحـــوالِ
وإذا اكتفـــى بـــالمنتقى اســـتذكارُه وفَّـــى لـــه المختـــارُ في الأعمـــالِ
ومســـالكُ الحســـنى تؤدِّيـــهِ إلى أقصى التقصّي مـــن قصـــي الآمـــالِ
ويلوح من قبسِ الـــهـــدايةِ رشـــدُهُ من معلمِ التفصيلِ والإجـــمالِ))[1]

وتلوح مصادر الفقه المالكي في تورية ابن جزي في غزله هذا :

قصتي في الـــهوى المدونـــةُ الـــ ـــكبرى وأخبارُ عشـــقي المبســـوطَهْ

---

(١) نفح الطيب ٥/٥٣٧، ٥٣٨ . وأزهار الرياض ٣/٢٠١، ٢٠٢ مع تغيير بسيط . والموطأ : للإمام مالك بن أنس . أهم كتاب في الفقه المالكي . والتمهيد : هو كتاب (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) ليوسف بن عبد الله بن عبد البر . انظر : الصلة . ابن بشكوال ٢/٦٤١ . والاستذكار : هو كتاب (الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمَّنه موطأ مالك من معاني الرأي والآثار) لابن عبد البر القرطبي . انظر : الصلة ٢/٦٤١ . والمنتقى : هو (المنتقى في رجال الحديث) في خمسة أسفار لمحمد بن إسماعيل بن خلفون الأزدي . انظر : التكملة ٢/٦٤٣ . والتقصي : هو (التقصي لما في الموطأ من حديث رسول الله ﷺ) في أربعة أجزاء لابن عبدالبر . انظر الجذوة ٣٤٥ . والمدارك : للقاضي عياض . كتاب في الفقه المالكي . انظر : النفح ٢/٥ . أما القبس : فلعله كتاب (القبس في شرح موطأ مالك ابن أنس) لأبي بكر بن العربي (- ٥٤٣هـ) . انظر أزهار الرياض ٣/٩ . أما المُعلِم : فلعله (المُعلِم بفوائد مسلم) لأبي عبد الله المازري (- ٥٣٦هـ) . انظر : أزهار الرياض ٣/١٦٦ ، أو أنه (المُعلِم بزوائد البخاري على مسلم) لأبي العباس أحمد ابن أبي عبد الله بن الرومية ، أو ابن العشاب (٦٣٧هـ) . وهو كتاب في الحديث ورجاله . انظر : الذيل والتكملة . السفر الأول ص ٥١٢ .

حجـــتي في الغـــرامِ واضـــحةٌ إذْ لم تزلْ مهجـتي بوجـدٍ منوطَـهْ [1]

وتأتي تورية ابن جابر الأندلسي بأسماء سور القرآن الكريم مفتعلة باردة تلوح عليها صبغة المنظومات العلمية . يقول :

في كلِّ فاتـــحةٍ في القـولِ معتـبرَهْ حق الثناء علـى المبعـوثِ بـالبقرَهْ
في آلِ عمرانَ قـدماً شـاع مبعثَـهُ رجالهم والنساء استوضـحوا خـبرَهْ
من مدّ للنـاسِ مـن نُعمـاه مائـدةً عمّت فليسَتْ على الأنعامِ مقتصـرَهْ
شوراهُ أن تـهجـرَ الدنيا فزخرفُهـا مثلُ الدخانِ فيعشي عينَ مَـنْ نَظَـرَهْ
في ليلةِ القدرِ كمْ قدْ حازَ من شـرفٍ في الفخرِ لم يكن الإنسان قدْ قَـدَرَهْ[2]

ويلوح أن التورية تحولت لدى بعض الشعراء المتأخرين إلى مذهب فني مستقل ، إذ شغف بها شغفاً بالغاً ، وأنفق قسماً كبيراً من شعره في التورية بأسماء كتب ومؤلفات العلوم المختلفة ، أو بأسماء أشخاص ، ومدن ، وأماكن . وهي تفصح عن الجانب الثقافي للشاعر ، فقد عني عبد الكريم القيسي بفن التورية ، وبرزت نماذج كثيرة منها في ديوانه ، وكان يقدم لبعضها بقوله : ((وقلتُ في غرض التورية))[3]. وكذلك جنح لسان الدين بن الخطيب إلى التورية بأسماء مؤلفات العلوم المختلفة التي ثقفها هذا العالم الكبير ، والذي مثّل بشخصيته العظيمة حصيلة الثقافة الأندلسية . فها هو ذا يورّي بأسماء كتب اللغة وعلمائها . يقول :

كتبتُ بدمعِ عـيني صـفحَ خـدّي وقد منـعَ الكـرى هجـرُ الخليـلِ

---

(١) نفح الطيب ٥٣٦/٥ . والمدونة الكبرى : للإمام مالك بن أنس . والمبسوطة من كتب الفقه المالكي . والواضحة في الفقه المالكي لعبد الملك بن حبيب السلمي (- ٢٣٨هـ) . انظر الجذوة ص ٢٦٤ . وانظر : نماذج أخرى من التورية بأسماء الكتب في أزهار الرياض ٢٠٢/٣، ٢٠٣ .

(٢) الفازازي . ديوان الوسائل المتقبلة ص ١٧٩-١٨١ .

(٣) انظر ص ٢٧٩ .

ورابَ الحاضـــرين فقلـــتُ هـــذا كتابُ العـــينِ ينســـبُ للخليـــلِ [1]

ومن التورية بأسماء علماء الحديث الشريف قول لسان الدين مصطنعاً لوعة العاشق المدنف :

قـــالَ لي والـــدموعُ تنـــهلُّ ســـحباً في عـــراصٍ مـــن الخـــدودِ مُحـــولِ

بـــكَ مـــابي فقلـــتُ مـــولاي عافـــا كَ المعـــافي مـــن عـــبرتي ونحـــولي

أنا جفني القريحُ يروي عن «الأعمـــشِ» والجفـــنُ منـــك عـــن «مكحـــولِ» [2]

ويوري بأسماء المواضع العربية التي طالما لهج بها الشعراء القدامى في توقيعهم لألحان العشق والهيام . يقول مستغلاً دلالات هذه المواضع اللغوية لتليق بمعاني الحب :

بنفسي غـــزالٌ في ثنايـــاهُ «بـــارقٌ» ولكنـــها للـــواردينِ عـــذابُ

إذا كان لي منهُ عن الوصلِ «حـــاجرٌ» فدمعي «عقيقٌ» في الجفونِ مُـــذابُ [3]

---

(١) ديوانه ٤٨٦/٢ .

(٢) ديوانه ٥٠٨/٢ . ومكحول الشامي (١١٢هـ- ٧٣٠م) أبو عبد الله الهذلي بالولاء فقيه الشام في عصره ، من حفاظ الحديث . أصله من فارس تفقه ورحل في طلب الحديث ، وطاف كثيراً من البلدان ، واستقرّ في دمشق ، وتوفي بها ، ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا . انظر : الزركلي . خير الدين . الأعلام . «ط ٥ ـ دار العلم للملايين . بيروت ، ١٩٨٠م ، ٢٨٤/٧ . وسليمان الأعمش (٦١- ١٤٨هـ/ ٦٨١- ٧٦٥م) أبو محمد تابعي مشهور . أصله من بلاد الري . ومنشأته ووفاته بالكوفة . كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض . يروي نحو ١٣٠٠ حديث . انظر : الأعلام ١٣٥/٣ .

(٣) ديوانه ١٣٩/١، ١٤٠ . بارق : جبل للأزد في اليمن ، أو ماء بالعراق . وهو الحد بين القادسية والبصرة . وهو من أعمال الكوفة . وقد ذكره الشعراء فأكثروا . انظر : معجم البلدان ٣١٩/١ . وحاجر : مايمسك الماء من شفة الوادي . انظر : معجم البلدان ٢٠٤/٢ . وعقيق : يطلق على المسيل من الماء شقه السيل من الأرض وفي بلاد العرب أربعة أعقة وهي أودية عادية شقتها السيول منها عقيقِ عارض باليمامة ، وعقيق بناحية المدينة وفيه عيون نخل ، ومنها عقيق بني عُقيل . ومنها عقيق لايدخلون عليه الألف واللام . وهي قرية قرب سواكن من ساحل البحر من بلاد البجاه ، ومنها عقيق البصرة ، والعقيق واد لبني كلاب . وقد أكثر الشعراء من ذكر العقيق ، وذكروه مطلقاً . انظر : معجم البلدان ١٣٨/٤-١٤١ .

الشغف بحسن التعليل :

وكان حسن التعليل من أبرز الفنون البديعية التي شغف بها الشاعر الأندلسي المحدث ـ ولا سيما في عهوده المتأخرة ـ فاجتهد في التحايل لتعليل الظواهر ، والمعاني المختلفة تحايلاً يسعى فيه إلى الإغراب ، ويثبت فيه براعته ، واتسم هذا اللون البديعي بخفة الروح ، وترجح بين الاعتدال والمعقولية في التعليل ، وبين الشطط والبعد . وهو في هذا وذاك لايخرج عن الصنعة الفنية التي يراد بها الزينة ، والإمتاع الفني المحض دون أن يشف عن قدر من صدق التجربة ، وتوقد الشعور .

فمن نماذج التعليل المعتدل قول ابن فرج الجياني مسوّغاً صفرة المحبوب :

قالوا بـه صـفرةٌ عابَـتْ محاسـنَهُ فقلتُ ماذاكَ مـن عيـبٍ بـه نـزلا
عيناهُ تطلـبُ في آثـارِ مَـنْ قتلـتْ فلستَ تلقـاهُ إلا خائفـاً وَجِـلا (١)

واقترن هذا اللون البديعي على نحو جلي بالموضوعات الجزئية التي عني بها أنصار الاتجاه المحدث ، والتي تبدت في المقطوعات الشعرية ، فظهر في موضوعات الغزل بالغلمان في أحوالهم المختلفة(٢) ، وفي العذار غضّاً أو تغزلاً(٣) ، وفي الخيلان . فهذا ابن حمديس يوغل كثيراً حين يعلّل للخال على خدّ المحبوب . يقول :

ياسـالبًا قمـرَ السـماءِ جـمالَه ألبسْتَني للحـزنِ ثـوبَ سـمائِه
أضرمْتَ قلبـي فارتـمى بشـرارةٍ وقعَتْ بخدّكَ فانطفَتْ مـن مائِـه (٤)

---

(١) الذخيرة ٢/٣ : ٨٨٨ .
(٢) انظر : الغزل بغلام يشكو الرمد . ديوان ابن الحداد ص ١٩٤ .
(٣) انظر : الذخيرة ٢/٣ : ٦٦٩ ، وديوان ابن خفاجة ص ٦١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .
(٤) ديوانه ص ٥٣٧ . ونُسب هذان البيتان في الذخيرة إلى الأديب أبي تمام غالب الملقب بالحجام . انظر : ص ٣٤٩ من هذا البحث .

ويطل النفس القصصي الشائق في بعض نماذج هذه التعليلات سعياً إلى الإغراب في تقديم المعنى المألوف تقديماً يتسم بالطرافة ، والرشاقة على نحو قريب من منزع ابن الزقاق في عرض المعنى القديم عرضاً جديداً يزيح عنه الرتابة ، والألفة . من ذلك قول أبي العباس أحمد بن حنون الإشبيلي مبتدعاً هذه الرحلة الطويلة التي قطعتها الخيلان حتى توضعت على محيّا المحبوب مفصحاً عن بعض مظاهر الحياة الأندلسية الحضارية :

وبيضاءَ تحسبها درّةً ... تذوبُ إذا ذُكِرَتْ أو تكادْ
تنمُّ بالمسكِ كافورتَيْ ... محيَّا حوى الحسنَ طُرًّا وزادْ
فقلتُ وقد كانَ ماكانَ من ... تخلُّلِ خيلانِها بالفواد
أكلٌّ وصالِكِ ذاكَ البياضُ ... وبعضُ صدودِك ذاك السوادْ
فقالَتْ أبي كاتبٌ للملوكِ ... دنوتُ إليه بحكمِ الوِدادْ
فخافَ اطلاعي على سرِّهِ ... فلم يَعْدُ أنْ رشَّني بالمِدادْ[1]

وسلك الشاعر المحدث سبيل التعليل الحسن في معرض المديح والتنويه بمناقب المديح . يقول ابن حمديس في كبوة الجواد بممدوحه :

لاذنبَ للطِّرفِ في معداه يومَ كَبَا ... بالبحرَ والطّودِ والضرغامِ من حسنِ
لعلّه في سجودٍ يومَ كبوتِهِ ... لديه لمّا علاه سيّدُ الزمنِ[2]

وقد يغدو هذا اللون البديعي معرضاً للمساجلات والمناقضات الشعرية بين الشعراء ، فيغرق الشاعر في تعسف العلل المتباينة ، والمتناقضة للموضوع الشعري الواحد . مما يعزز أن الغاية من هذا اللون الاستطراف أكثر من كونه إفصاحاً عن فكر أو شعور ما . نحو هذه التعليلات المختلفة التي أثارها مشهد المرج الأحمر لدى هذين الشاعرين ، بما تحمله من ظلال أندلسية خاصة بالجانب الحربي اللاهب الذي امتازت به الأندلس على امتداد تاريخها الطويل .

---

(١) المغرب ١/٢٤٩ .
(٢) ديوانه ص ٥١٤ .

((وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جهور : رأيت لابن مرج الكحل مرجاً أحمر قد أجهد نفسه في خدمته ، فلم ينجب ، فقلت له :

يامرجَ كحلٍ ومَنْ هذي المروجُ له ... ماكانَ أحْوجَ هذا المرجَ للكُحُلِ
ماحمرةُ الأرضِ من طيبٍ ومن كرمٍ ... فلا تكُنْ طمعاً في رزقِها العجلِ
فإنّ من شأنِها إخلافَ آملِها ... فما تفارقُها كيفيّةُ الخجلِ

فقال أبو عبد الله بن مرج الكحل :

ياقائلاً إذْ رأى مرجي وحمرتَه ... ماكانَ أحْوجَ هذا المرجَ للكحلِ
هذا احمرارُ دماءِ الرومِ سيّلَها ... بالبيضِ مَنْ مرَّ من آبائِيَ الأُوَلِ
أحببتُهُ أنْ حكى مَنْ قدْ فُتِنْتُ به ... في حمرةِ الخدّ أو إخلافِهِ أملي))[1]

أصباغ بديعية أخرى :

عني شاعر الأندلس المحدث بأصباغ بديعية أخرى استخدمها على سبيل الزينة اللفظية وإبراز البراعة الفنية . منها اللف والنشر . كقول حسان ابن المصيصي :

أراهُ وأرجوه وأنشرُ فضلَهُ ... فيملأُ منّي العينَ والكفَّ والفَمَا [2]

وهذا ابن خاتمة يباهي ببراعته في هذا الزخرف الشكلي . يقول : ((وقال وفيه من اللف والنشر ماينذر وقوع مثله في الشعر :

وخاطرةٍ كالظبيِ في خطوِها بُعْدُ ... تكادُ أعاليها من اللينِ تنقَدُّ
وفردوسُها والقضبُ والعَرْفُ والندى ... وأوراقُها والورقُ والكثبُ والرّندُ
وحضرتُها والراحُ والنّقْلُ والغنا ... ونرجسُها والزهرُ والآسُ والوردُ
ثيابي وأعطافي ونشري ونعمتي ... وقرطي وحليي والروادفُ والقَدُّ

---

(١) جرار . دكتور صلاح . مرج الكحل الأندلسي ص ١٣٢ .
(٢) الذخيرة ١/٤ : ٢٢٢ .

ووجهي وريقي والنـــهودُ ومنطقـــي ولحظي وثغري والغـــدائرُ والخـــدُّ[١]

ومنها رد العجز على الصدر . انظر قول ابن شرف :

سلَ عنه وانطقْ به وانظرْ إليـــه تجِـــدْ ملءَ المســـامعِ والأفـــواهِ والمُقَـــلِ[٢]

ومنه قول لسان الدين بن الخطيب :

جزيتِ يابنَ رسولِ اللهِ أفضـــلَ مـــا جزى الإلهُ شريفَ البيتِ يومَ جـــزى

إنْ أعجزَ الشكرُ مني منّـــةً ضـــعفَتْ عن بعضِ حقّكَ شكرُ اللهِ مـــاعجزَا[٣]

ومنها مراعاة النظير . كقول ابن زيدون :

نضـــدت ريـــاحين الطلاقـــة غضّـــةً ورقرقت ماء الـــبرِّ وهـــو سلاســـلُ

مساعٍ هي العقـــدُ انتظـــامَ محاســـنٍ تحلّى بـــها جيدٌ من الدهرِ عاطـــلُ[٤]

وقول لسان الدين بن الخطيب :

فقلبـــي لكَ البيـــتُ العتيـــقُ مقامُـــهُ وشوقي إحرامي ودمعـــي زمزمـــي[٥]

وقوله أيضاً :

تخـــذوا الســـيوف تمائمـــاً لوليـــدِهم والحربَ ظئراً والســـروجَ مهـــودا[٦]

البديع في عمقه الفكري والنفسي :

اكتسب البديع الأندلسي قيمته الحقيقية حين أغنى المعنى ، ورفد الشعر بحصيلة فكرية ، وشعورية عميقة ، فأتى استجابة للمناسبة ، أو الموقف الذي يصدر عنه الشاعر ليزيده جلاءً وعمقاً ، ويمنحه طاقات إيحائية ، ودلالية جديدة . فانفتحت مع البديع آفاق فكرية واسعة إذ وقعت الألوان البديعية في كل هذا موقعها الملائم من الشعر بحيث لايليق به غيرها . فنرى هذا البديع آنذاك يعانق المعنى ، ويندغم في الشعور ، ويلامس الفكرة ، فيغدو سداها

(١) ديوانه تحقيق : الداية . دكتور محمد رضوان ص ١٠٥ .
(٢) الذخيرة ١/٤ : ٢٢٢ . (٣) ديوانه ٤٥٥/٢ .
(٤) ديوانه ص ٣٩٥ . (٥) ديوانه ٥٥٩/٢ . (٦) ديوانه ٣٥٢/١ .

ولحمتها . يذهب عبد القاهر الجرجاني في بعض ألوان البديع إلى ((أنك لاتجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه ، واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لاتبتغي به بدلاً ، ولا تجدُ عنده حِوَلا . ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقُّه بالحسن وأولاه ، ماوقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ماهو تحسن ملاءمته ـ وإن كان مطلوباً ـ بهذه المنزلة وفي هذه الصورة))[1] . ويخرج البديع هاهنا عن سذاجة الصنعة المتمثلة في قعقعة الأصوات ، وبريق الألوان ، وبهرجة المظهر ، بل يجهد ليغوص بالمتلقي في أغوار النفس الإنسانية ، ويولّد دقائق ذهنية خاصة ، فيغدو وعاءً لفكر الشاعر . ومن الجلي أن البديع في هذا الضرب لايصدر صدوراً ساذجاً عفويًّا ، وإنما يأتي حصيلة جهد ذهني شديد ، ويصبح مفصحاً عن فكر عال يسلك العناصر المتناقضة أو المتشابهة في مسلك واحد ، ومن ثَمَّ يصوغها صوغاً فنيًّا راقياً . يقول أحد الباحثين في التفرقة بين بديع أبي تمام ، وبديع الشعراء المتأخرين بعده : ((والفارق بين بديع أبي تمام عامة ، وبديع الشعراء الذين جاؤوا في القرن الخامس والسادس وما بعدهما أننا نحس ـ مع أبي تمام ـ بشاعر مَلَكَ زمامي النظم : الفكرة ووسيلة التعبير عنها ، وكان غناه بالأفكار لايقل عن تمكنه من وسائل التعبير عنها على حين كان الشاعر في القرون المتأخرة والتي أطلق عليها اسم (عصر الانحطاط) لايتمتع إلا بالقليل من غنى الفكرة وبزاد يسير من الرصيد المعنوي جعله يعوض عن هذا الفقر في المعاني ، والانحسار في التجارب الشعورية الصادقة الخصبة بالإمعان في تصيُّد المحسنات البديعية ، والزخرفة اللفظية))[2].

---

(١) أسرار البلاغة . تحقيق : هـ . ريتر . استانبول . مطبعة وزارة المعارف ١٩٥٤م ص١٠.

(٢) الربداوي . دكتور محمود ، الفن والصنعة في مذهب أبي تمام . المكتب الإسلامي . دمشق ، ١٩٧١م ، ص٥٠ .

وكذلك حمّل الشاعر الأندلسي ـ في أحيان كثيرة ـ البديع شحنات غنية من الفكر ، وأصالة المعنى ، وعمق الإحساس . بل كانت ألوان البديع لديه تنقاد للموقف الشعري الذي كان يقتضيها ، ويستدعيها لتقع موقعها الملائم الذي لا يليق به غيرها ، ولتتضح حينذاك بصدق التجربة ، وجوهر الفكر . فهذا ابن عبد ربه يجلو بالطباق قارعة الموت إذ تلمّ بالإنسان مبرزاً عمق المفارقة التي تقوم على الأمل الطويل الذي يغرّ الإنسان ليسلمه في النهاية إلى أجل قصير خسرَ فيه كل ماحرص على جمعه من حطام الدنيا ، وتتبدى قسوة واقعة الموت بالمرء في أنها تفصل بين سراب الوهم ، وجلاء اليقين ، وتبدله دار الحق بدار الغرور . يقول ابن عبد ربه في ذكر الموت :

فيامن غرّه أملٌ طويلٌ يؤدّيه إلى أجلٍ قصيرِ
ستُسلبُ كلّ ماجمّعْتَ منها كعاريةٍ تُردُّ إلى المُعيرِ
وتعتاضُ اليقينَ من التظنّي ودارَ الحقّ من دارِ الغرورِ[1]

وحين يروم ابن عبد ربه التنفير من الدنيا ، ومتاعها الزائل يستخدم الطباق الذي يجلو الصورة الحقيقية للدنيا . صورة تغدو معها الآمال عينَ المآسي ، واللذاتُ المصائب نفسها . صورة تكشف عن تقلب الأيام والأوضاع بالناس . يقول في الزهد :

هي الدارُ مالآمالُ إلا فجائعٌ عليها ولا اللذاتُ إلا مصائبُ
فكم سخنتْ بالأمسِ عينٌ قريرةٌ وقرّتْ عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ[2]

ولا يخفى أن ابن دراج كان من أبرز الشعراء الأندلسيين الذين استخدموا البديع هذا الاستخدام العميق والدقيق ؛ فلم يكن البديع لديه زينة فنية أو زخرفاً شكليًّا فحسب ، وإن كان بعض من شعره البديعي يحوم حول هذا الضرب كما رأينا ، وإنما كان قسم عظيم من البديع لديه وعاء لفكره ،

(١) ديوانه ص ٩٤ .
(٢) ديوانه ص ٢٦ .

ومقياساً دقيقاً لنبضات فؤاده ، وترجماناً أميناً لمعاناته السرمدية في الاغتراب . وهو البديع الذي كانت تستدعيه المناسبة ، ويتطلبه الموقف ، فيضفي على شعره شحنات شعورية فريدة ، ويغنيه بتلوينات فكرية خاصة . على النحو الذي نجده في بديع أبي تمام ، والذي كان من الأسباب التي دفعت بعضهم إلى قرن ابن دراج بأبي تمام[1] .

ففي موضوع الشكوى من التشرد والاغتراب ، وهو من أبرز موضوعات شعر ابن دراج ، وفي حديثه عن تقلب الدهر بأبنائه من سكن النعيم إلى قلق الرحيل لايرى ابن دراج خيراً من الطباق والمقابلة التي تمس أعنف مشاعر الفاجعة المتمثلة في الانتقال الرهيب من ليونة العيش ، ورغده إلى ذل التنقل والرحيل . مطابقات يكلف ابن دراج في ترددها والإكثار منها سعياً إلى استقصاء دقائق الإحساس بالتحول الأليم من النقيض إلى النقيض . انظر هذه المفارقات التي يولدها ابن دراج ، ويستكثر منها في تعبيره عن مرارة معاناة أبنائه في رحلتهم تلك استكثاراً يصب في سمة ترديده للمعنى ، وتعقبه ، واستقصائه كما رأينا . يقول :

فبُدّلْنَ من بعدِ خفضِ النعيمِ ... بشقّ الحزونِ ووعثِ السهولِ
ومنْ قِصَرِ الليلِ تحتَ الحجالِ ... بهولِ السُّرى تحتَ ليلٍ طويلِ
ومن علَلِ الماءِ تحتَ الظلالِ ... صلاءَ القلوبِ بحرّ الغليلِ
ومنْ طيبِ نفحٍ بنورِ الرياضِ ... تلظّيَ لفحٍ بنارِ المقيلِ
ومنْ أنسها بينَ ظئرٍ وترب ... سُرى ليلها بينَ ذيبٍ وغولِ
ومن كُلّ مرأى مُحَيّا جميلٍ ... تلقّي الخطوبِ بصبرٍ جميلِ[2]

---

(١) انظر قول ابن حزم فيه : ((لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي)) الجذوة ص ١٠٥، ١٠٦ .

(٢) ديوانه ٧٨، ٧٩ .

ولعلنا لاحظنا البراعة في المقابلة بين (محيا جميل) و (صبر جميل) فمع أن اللفظين متطابقان فإن دلالتيهما متنافرتان كل التنافر . ففرق واسع بين استجلاء المحيا الجميل ، وتلقي المصائب بالصبر الجميل . بين جمال المحيا ، وجمال الصبر .

وعلى هذا النحو يتبدى بُعد الشقة بين قصف الراح ، وقصف الريح ، وبين لعب الهوى ، ولعب الهواء . مضيفاً إلى جمالية الطباق جمالية الجناس . يقول في تحول أبنائه من الدعة إلى التشرد :

ومنْ قصفٍ وراحٍ قصفَ ريحٍ ومن لعبِ الهوى لعبَ الهواء [1]

وقادته مرارة هذه المعاناة إلى أن يعوذ بفناء مليكه الكريم بمجموعة من الطباقات التي تشي بضعف الغريب وذله ، ورجاء الملهوف في حضرة الماجد الشريف . يقول :

إلى المستجارِ من المستجيرِ إلى المستقالِ من المستقيلِ

إلى المستضافِ المليكِ العزيزِ من المستضيفِ الغريبِ الذليلِ [2]

ويبرع ابن دراج إذ يطنب في هذه المطابقات التي تفصح عن حال الرضا التي غدا الشاعر يحياها في كنف الممدوح الذي انتشله من غيابات الحرمان ، والكفاف ، والذلة . مطابقات تكشف ترجح الشاعر بين أحاسيس الاستبشار والخيبة . بين الرجاء ، واليأس . بين الاطمئنان ، والتشرد في سياق رحيله الطويل بعيد الفتنة التي طوحت به في الآفاق يستجدي المهاد الآمن ، والكنف الكريم . يقول ممتنّاً للممدوح الذي تداركه بالغوث :

فلَئِنْ صَفَا ماءُ الحياةِ لديكَ لي فبما شرقْتُ إليكَ بالماءِ الصّرَى

ولئنْ خلعْتَ علي بردًا أخضرا فلقد لبستُ إليكَ عيشًا أغبرا

ولئنْ مددْتَ عليّ ظلا باردًا فلكم صليتُ إليكَ جوًّا مُسْعِرا [3]

---

(١) ديوانه ص ٣٢٤ . (٢) ديوانه ص ٧٩ . (٣) ديوانه ص ١٢٧ .

وجـــزاء ماآويْـــتَ وحـــشَ تغـــرُّبي وفسحْتَ روضَكَ لارتعـــاءِ ســـوامي
وفعَمْـــتَ لي بحـــرَ الحيـــاةِ مبـــادرًا بحيـــاةِ ذابلـــةِ الكبـــودِ ظـــوامي
وبسَطْتَ لي وجهًا كسَـــفْتُ بنـــورِهِ كُـــرَبَ الجـــلاءِ وخلّـــةَ الإعـــدامِ
ووجدتُ ظلّكَ بعـــدَ يـــأسِ تقلُّـــبي وطـــنَ الرجـــاءِ ومـــنزلَ الإكـــرامِ
فكأنّ وجهَكَ غُـــرّةُ الفطـــرِ الـــذي وافى بفطريَ بعدَ طـــولِ صـــيامي[1]

وفي خضم هذا اليم الذي كان يتعاور ابن دراج بين المد والجزر ، بين رضا الممدوح ، وإهماله كان ينفث من حين إلى آخر زفرات الحسرة ، والشكوى ؛ إذ يعاتب الممدوح على إغفاله إياه مؤثراً مذهبه المعهود في المفارقات والمطابقات التي تفصح عن البعد بين تفانيه في تمجيد الحاكم ، وخبوّ نجمه لديه . يقول في يحيى بن المنذر :

أيغـــرُبُ عنـــدكَ نجـــمُ اغتـــرابي ومطلعُـــهُ لـــكَ في الأرضِ بـــادِ
وأسقي الورى عنـــكَ مـــاءَ الحيـــاةِ وأرشـــفُ منـــك حمـــيءَ الثمـــادِ
وزرعـــي فيـــك حصـــيدُ الخلـــودِ وحظّـــي منـــك لقـــيطُ الحصـــادِ[2]

ويميط البديع اللثام عن أعمق مشاعر الهم والألم التي تملكت صدر شاعرنا وهو يحيا خسارته الكبرى في فقد الشباب ، وفراق الأحباب في الفتنة المبيرة . يقول :

فسكِرْتُ والأيـــامُ تســـلُبُ جِـــدّتي والـــدهرُ ينســـجُ لي ثيـــابَ ســـلابي
سكرَيْن من خـــمرَيْن كان خمـــارها فقـــد الشـــبابِ وفرقـــة الأحبـــابِ
لـــمدى تناهى في الغوايـــةِ فانتـــهى فينـــا إلى أمـــدٍ لـــه وكتـــابِ
وهـــوًى تقاصـــرَ بـــالمنى فأطـــالَ بي هـــمّاً إلى قلـــبي ســـرى فســـرى بي

---

(١) ديوانه ص ٢١٥ .

(٢) ديوانه ص ٢٩١ . وانظر : أبياتاً أخرى له في هذا السياق في ديوانه ص ٤٧، ٤٨، وكذلك في ص ٤٩٢ .

في جاهليـــةِ فتنـــةٍ عُبِـــدَتْ بـــــها دونَ الإلـــــهِ مضـــــلّةُ الأربـــــابِ
تستقســـــمُ الأزلامُ في مهجاتنـــــا وتســـيلُ أنفسُـــنا علـــى الأنصـــابِ
غـــيراً مـــن الأيـــامِ أصـــبح ماؤهـــا غـــوراً وأعقـــب صـــفوُها بعقـــابِ
وبوارقـــاً للغَـــيِّ أضـــرم نورهـــا ناراً وصـــاب غمامُهـــا بالصـــابِ[1]

فالجناس يسهم في تعزيز المعنى ، وتعميق فاجعة الفقد ، وزيادتها حدة (تسلب وسلابي ، فقد وفرقة ، خمرين وخمارها) ، ويكشف مدى استحكام الهم في فؤاده (سرى فسرى بي) ، ووطأة الزمن (تناهى وانتهى ، غيراً وغوراً) وحدّة الضلال (نورها ناراً ، وصاب والصاب) كما يرشح الطباق (تقاصر بالمنى فأطال همًّا) بأقسى مشاعر الخيبة الناجمة عن الهوى الذي تقاصر بالأماني لكنه أطال على الشاعر الهموم والأوصاب .

وتبرز حدة قلق الشاعر ، ومعاناته من الرحيل الدائب من خلال الطباق الذي يوحد النقائض ، فيغدو الثواء في تجربة الشاعر تقلقلاً وتشرداً ، ويصبح قراه في هذا الرحيل حرماناً وإذلالاً . يقول :

بـــمشـــرّد قلقِ الثّواءِ بـــمنـــــزلٍ لاينشـــــــي فيـــــه لـــــه الـــــزوَّارُ
مشـــواي فيـــــه تقلقـــــلٌ وتأهُّـــــبٌ وقِـــراي فيـــــه ذلّـــــةٌ وصـــــغارُ[2]

تقول إحدى الباحثات في ظاهرة توحيد ابن دراج للنقائض : ((إنّ سرّ شاعرية ابن دراج تكمن في هذه المطابقات والمقابلات الزمنية والمكانية في

---

(١) ديوانه ص ١٨٤. وقد ورد الشطر الأول من البيت الثاني فيه هكذا بينما ورد في اليتيمة هكذا (سكرت من خمر كأنَّ خمارها) انظر : ١١٥/٢ ولعله الأنسب بالمعنى. وأشار محقق الديوان في الحاشية رقم (١) من الصفحة (١٨٤) إلى هذه الرواية في اليتيمة .

(٢) ديوانه ص ١٥٦ .

الجمع بين المتناقضات والمتباعدات ، وإحداث الغرابة ، وتوليد المفارقة عندما يعمد إلى جمع ما لا يجتمع ، وعقد المشابهة بينهما))[1] .

ويلتاح ظل أبي تمام في التضاد وعنايته بالحالات المتناقضة التي يفضي بعضها إلى بعض في قول ابن دراج :

ياحسنَ مرأى الهدى منْ قبحِ منظـرِهِ وبردَ أكبادِ حزبِ اللهِ مـنْ لَهَبِـهْ[2]

وكذلك في قوله :

كم قد سعدتُ بـما تمنّى حاسـدي قدراً وخِبْتُ بـما تخيَّـرَ صـاحبي

ووجدتُ طعمَ السُّمِّ في شهدِ الجـنى وأجاجَ شـربي في نمـيرِ مشـاربي[3]

ويسهم التدبيج في نسج خيوط معاناة أبناء الشاعر في تشردهم الذي نقلهم من رخاء العيش إلى شظف الحياة وأحوالها . كل ذلك في سياق من المفارقات . يقول :

سَـرَوا فشَـرَوا بأفيـاءٍ ضـوافٍ فيـافي لايقـين مـن الضـحاءِ

وحمرَ المـوتِ مـنْ خضـرِ المغـاني وسودَ البيدِ من بـيضِ الـملاء[4]

ويلبي البديع أفكار الزهد لدى أبي إسحاق الإلبيري ، فيعزز معاني تقلب الدنيا وخداعها ، وخسران الإنسان فيها ، وسوء مآله إن ركن إليها . يقول :

فليسَـتْ هـذه الـدنيا بشـيءٍ تسـوؤك حقبـةً وتسُـرُّ وقتـا

---

(١) طحطح . دكتورة فاطمة ، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي . منشورات كلية الآداب بالرباط . مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء ، ١٩٩٣م ، ص ١٠٣ .

(٢) ديوانه ص ٤٤٢ . وهذا قريب جدًّا من قول أبي تمام في بائيته :

سـماجةٌ غنيـت منـا العيـونُ بـها عن كل حسن بـدا أو منظـرٍ عجـب

وحسـن منقلَـبٍ تبـدو عواقبـه جاءت بشاشـتُه مـن سـوء منقلـب

ديوان أبي تمام ، بشرح الخطيب التبريزي تحقيق عزام . محمد عبده ـ دار المعارف بمصر ٦٣/١

(٣) ديوانه ص ١١١ .

(٤) ديوانه ص ٣٢٣ .

وتطعمُكَ الطعامَ وعن قريبٍ ستطعم منكَ مامنها طعمْتَا
ولم تُخلقْ لتعمرَها ولكنْ لتعبرَها فجِدِّ لما خُلقتَا
ولا تضحكْ مع السفهاءِ لهواً فإنكَ سوف تبكي إنْ ضحكْتَا [1]

ويستدعي حديث الشكوى بعض ألوان البديع التي تجسُّ نبضات الخيبة من الدهر والناس . يقول أبو بكر الداني :

زمنُ المشيبِ زمانةٌ ولربّما زادتك فيه خيانةُ الإخوانِ
زادوا جفاءً فانتقصْتَ مودةً ومن الزيادةِ موجبُ النقصانِ [2]

فيكشف الجناس (زمن المشيب زمانة) وطأة الهرم الذي غدا علّة دائمة ، ويصعّد الجناس الآخر (خيانة الإخوان) قسوة هذه المعاناة بغدر من ينتظر منهم التراحم والتواد في هذا الطور القاسي من العمر . وتتحول المشاعر الإنسانية بالمطابقة (زادوا جفاء فانتقصت مودة) طرداً مابين النقص والزيادة لتنتهي إلى نتيجة يفضي فيها الضد إلى ضده (ومن الزيادة موجب النقصان) .

ويفصح البديع في هذه الأبيات عن حرج الموقف النفسي الذي يعيشه هذا الشاعر وهو يترقب عطف الممدوح . تتجاذبه ظلمة الحرمان ، وإشراق البشر ، ويتنازعه الرجاء ، واليأس . يقول الأديب النحوي أبو عبد الله بن خلصة الضرير :

مالي أرى الآمالَ بيضاً وُضَّحا ووجوهُ آمالي حوالك جونُ
والعدلُ خيمٌ منكَ إلاّ أنه جدّي العثورُ وحظِّيَ المغبونُ
أنا آمِنٌ فَرِقٌ وراجٍ يائسٌ وَ رَوٍ صدٍ ومُسرّحٌ مسجونُ [3]

ويرشح الطباق لدى ابن خفاجة بمعاني التأمل الهادئ حيناً ، والانفعال العميق حيناً آخر . وذلك حين يصبح الجبل لدى الشاعر موطناً للمتناقضات ،

---

(١) ديوانه ص ٢٨، ٢٩ .
(٢) الذخيرة ٣/٢ : ٦٨٦-٦٨٧ .
(٣) الذخيرة ٣/١: ٣٢٦-٣٢٧ .

إذ يحلُّ به أخيار الناس وشرّارهم ، وأشقياؤهم وسعداؤهم ، ويقيم به الراحل والآيب ، والراكب والمنيخ . ولكن هؤلاء جميعاً كانوا سواء في مصيرهم . يقول في هذا الحديث النفسي للجبل :

أصخْتُ إليهِ وهو أخــرسُ صــامتٌ فحدثني ليــلَ السُّــرى بالعجائــبِ
وقالَ ألا كمْ كنْــتُ ملجــأ فاتــكٍ ومـــوطنَ أوّاهٍ تبتّـــلَ تائـــبِ
وكم مَــرّ بي مــن مــدلجٍ ومــؤوِّبٍ وقالَ بظلــي مــن مطــيٍّ وراكــبِ
فما كان إلا أنْ طوتْهم يــدُ الــردى وطارتْ بــهم ريحُ النوى والنوائبِ[1]

ومن اللافت أن يغدو بكاء الجبل وهو يروى مشاعره تسلية للشاعر ، وتتحول أشجانه تسرية لابن خفاجة . ذلك أن الشاعر نفّس ببكائه عن آلامه الدفينة ، واستمد من الجبل الصلابة والقوة . يقول :

فسلّى بــما أبكى وسرّى بمــا شَــجَا وكان على ليلِ السُّرى خيرَ صاحبِ[2]

ويستخدم ابن خفاجة البديع في تعبيره عن الفراغ النفسي الذي خلّفه غياب خليله استخداماً موفقاً تفقد فيه معاني الأنس والنعيم لونها لدى الشاعر ، بل تتحول إلى أضدادها ، ويغدو محالاً أن يرأب صاحبٌ آخر الصدع الذي أحدثه غياب ذاك الخليل ، كما أنه لايغني السراب عن الماء الزلال . يقول :

فلستُ بناسي صــاحبٍ مــن ربيعــة إذا نسيَتْ رســمَ الوفــاءِ صــحابُ
أجَلْتُ طباعي فيه فــالأنسُ وحشــةٌ طــوالَ الليــالي والنعــيمُ عــذابُ
وهيهــاتَ لاأغنَــى خليــلٌ غنــاءَهُ ولا عدلَ العذبَ الفراتَ ســرابُ[3]

ويفصح الطباق عن شكوى الشاعر من وطأة الزمن الذي يزيد في سنّه لينقص من عمره . أما الجناس (التصريع) فلا يقتصر على المشاكلة اللفظية والإيقاع الموسيقي ، وإنما يشي بالاتفاق في الحال ؛ إذ إن تقدم العمر بالشاعر يفضي إلى نقصانه كما تقوده العلل والأسقام إلى الرعدة . يقول :

---

(١) ديوانه ص ٢١٦ . (٢) ديوانه ص ٢١٧ . (٣) ديوانه ص ٢١٩ .

ألا إنّهـــا ســـنٌّ تزيـــدُ فـــأنقصُ ونفضةُ حـــمّى تعتريني فـــأرقصُ [1]

ويجلو ابن خفاجة بالتدبيج البديعي بعض الجزيئات في المعنى ، ودقائق الشعور الإنساني ، فلا يقتصر عمله على الإبهار اللوني الساذج ، وإنما ينضح أحياناً بنبضات الأحاسيس ، والمعاني الفريدة . نحو هذه الألوان التي خطّتها يد السقام في خد الشاعر المدنف ، وما توحيه من مظاهر الألم والعناء . يقول :

والمَحْ صحيفةَ صفحتي فـاقرَأْ بـــها سطرَيْن منْ دمـعٍ بـــها متحـدِّرِ
كتبَتْهما تحتَ الظـلامِ يـدُ الضـنى خوفَ الوشاةِ بأحـمرٍ في أصـفرِ [2]

ويسهم التدبيج مع الطباق في بيان مضاء كتابة هذا الطرس وقوة بيانه . يقول ابن خفاجة :

فللهِ طـرسٌ كلّمـا اسـودَّ أسـطرًا تألّقَ لفظًا فهـو أبـيضُ أسـودُ [3]

وتعبر هذه المطابقات عن قسوة المفارقة التي عاشتها حرائر الأندلس مابين خفض العيش ونعومته ، وذل الأسر ، وضنك الحياة فيه . يقول أبو جعفر أحمد الكناني الوقّشي (-٤٨٩هـ) يرجو نجدة الأمير أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن للأندلس :

ويفتكُّ من أيـدي الطغـاةِ نواعمًـا تبدلْنَ مـن نظـمِ الحجـولِ قيـودَا
وأقبلْنَ في خُشْـنِ المسـوحِ وطالمـا سحَبْنَ من الوشـيِ الرقيـقِ بُـرُودَا
وغَبَّـرَ منـهنّ التـرابُ ترائبًـا وخدَّدَ منـهنّ الهجـيرُ خـدودَا [4]

وتحمل الألوان في بيته التالي دلالات متباينة . يقول :

فحـقّ لـدمعي أنْ يفـيضَ لأزرقٍ تـملّكـها دُعج الـمدامعِ سودا [5]

ويحمّل الشاعر الأندلسي المحدث البديعَ أفكارَ أدق التيارات الفلسفية الصوفية ، فيشف عن أصول المذهب الصوفي ، ويعزّز معانيه الفلسفية ، ويزيح

---

(١) ديوانه ص ٢٧٨ .
(٢) ديوانه ص ٤٩ .
(٣) ديوانه ص ١٩٦ .
(٤،٥) نفح الطيب ٤٧٨/٤ .

بعضاً من غموضها ، فيمنحها جلاءً ووضوحاً . ولعلنا نستجلي أثر البديع في عرض مذهب الششتري وأتباعه في الوحدة المطلقة ، وكيف رسخ الجناس مصطبغاً بالطباق أحياناً أصول ذلك المذهب في رفض الغيرية أو الاثنينية في الكون ، وإثبات الوحدة المطلقة ، وإنكار كل ماسوى الحق . يقول الششتري :

أرى طالبًا منّا الزيادةَ لاالحُسْنى بفكرٍ رمَى سهْمًا فعَدّى به عَدْنا
فطالبُنا مطلوبُنا من وجودِنَا نغيبُ به عنّا لدى الصّعْقِ إذعَنَّا
فرفضُ السِّوى فرضٌ علينا لأنّنا بِملّةِ مَحْوِ الشِّركِ والشكِّ قدْ دِنّا
ولكنّه كيفَ السبيلُ لرفْضِهِ ورافضُهُ المرفوضُ نحنُ وما كنّا (١)

وبنفي الغيرية يغدو الطالب مطلوباً ، والرافض عينَ المرفوض ، ورفض السوى واجبًا ، ويصبح الشرك قرينًا للشك في هذه الحقيقة في الإنكار ؛ إذ لاموجود إلا الله . وهنا يبدو العقل قاصرًا عن إدراك الحق ، فهو يعوق عن الارتقاء والسمو ، ويقيّد المرء في الحضيض ؛ لأنه بأوهامه يتخيل التعدد في الكون من موجد ، وموجود مع أنه لا موجود سوى الله . يقول الششتري :

يبطّئُنَا عندَ الصعودِ لأنَّهُ يَودُّ لَوَ انّا للصعيدِ قد اخْلدْنَا
وعدَّدَ شيئًا لم يكنْ غيرَ واحدٍ بألفاظِ أسماءٍ بها شتّتَ المعنى (٢)

ويستعين بالجناس مرة أخرى في تعزيز معنى إنكار العقل ، والدعوة إلى اطراحه للوصول إلى الهداية المطلقة . يقول :

وطلّسمُ كترِ الكونِ حلُّ عقالِنَا من العقلِ وهو المستفادُ مدى الدهرِ (٣)

ويبرز الششتري بهذا الطباق البون الشاسع بين تفوقه وأتباع مذهبه في إدراك السر الإلهي على الآخرين من الحكماء ، والمتصوفة الذين حاروا فيه ، وسعوا إلى معرفة كنهه إما بالعقل ، وإما بتغييبه . لكنهم أخفقوا في مسعاهم ذاك ، ولم يصلوا إلى السبيل الحق . أما هو وأقرانه فانكشف لهم الغطاء وغاصوا في

---

(١) ديوانه ص ٧٢ . (٢) ديوانه ص ٧٣ . (٣) ديوانه ص ٤٤ .

أعماق تلك الحقيقة الخالدة ، فغدا الباطن الذي انتهى إليه أولئك جميعاً ظاهراً في مذهبهم هم . يقول :

كشَفْنَا غطاءً مـنْ تَـدَاخُلِ سـرِّها فأصبحَ ظهرًا مـارأيتُمْ لـهُ بَطْنَـا (١)

وهكذا تقلّبت ألوان البديع في شعر الأندلسين مابين العفوية ، والاعتدال ، والاندغام في المعنى الشعري في طريقة العرب ، وطغيان التكلف والصنعة في مذهب المحدثين لتسم الشعر بالضحالة حين كانت عناية الشاعر تنصب على تزويق الشكل ، وتنميقه بالصوت ، واللون ، مهملاً روح الشعر ، وجوهره في سبيل إرضاء سعيه الأعظم إلى الاستطراف والإغراب . ومع هذا فقد حُمِّل شطر مهم من البديع الأندلسي بحرارة المعاناة ، وغنى الفكرة ، وشفّ عن أصالة التجربة الشعرية ، فكان يرفد الشعر بآفاق فكرية ، ومعنوية ، ويغنيه بأبعاد شعورية . وامتاز البديع الأندلسي أيضاً بالقصد إذا ماقيس بنظيره المشرقي ـ حتى لدى أنصار التيار المحدث ـ في العصور الأدبية المتأخرة . وهذا ماأكسب الشعر البديعي الأندلسي مزيداً من الأصالة والتدفق . بل كانت الدعوة الأندلسية الغالبة إلى القصد في البديع مظهراً من مظاهر التوفيق بين مذهبي العرب والمحدثين .

* * *

(١) ديوانه ص ٧٦، وروضة التعريف بالحب الشريف . لسان الدين بن الخطيب ٦١٨/٢ .

obeikandi.com